

الشاويش البريطانى الجاسوس

صراع بين المخابرات السوفيتية والبريطانية

بقلم الكاتب
محمود عبد العظيم

Bibliotheca Alexandrina
0015826
327
10

الشاويش البريطاني الجاسوس

صراع بين المخابرات السوفيتية والبريطانية .....

بقلم الكاتب

محمود عبد العظيم

مقدمـــة

« جيفرى برايم » أخطر الجواسيس الذى أستطاع بمهارة وبساطة شديدة أن ينفذ الى قلب أعقد مركز للمعلومات والتجسس وأن يحصل منه على أخطر المعلومات المتعلقة بأمن بريطانيا وأمن حلفائها دون أن يشك فيه أحد أو يكتشف أمره كل قوى الأمن المنتشرة فى بريطانيا وفى الغرب ، وأستطاع أن يغير كثيرا من أسلوب التجسس للغرب ، بل أن أجهزة المخابرات الغربية أرادت أن تعرف الكثير وأخطرها هى عملية البحث عن عميل سرى أقضى مضاجع رجال الـ (CIA)خلال الستينات وتسبب فى شلل المخابرات الأمريكية وقد تركز نشاط فريق البحث عن هذا الجاسوس فى داخل الوكالة نفسها لأن الجاسوس كان أحد رجال وكالة المخابرات نفسها ومن ثم فأنه قد أجريت تحريات مكثفة عن أكثر من ١٢٠ من موظفى الوكالة الذين حامت حولهم الشكوك ، ثم ضاقت الحلقة لتشمل ٥٠ فقط ممن وجدت ضدهم شكوك قوية وقت تصفية القائمة لتشمل عددا يتراوح بين ١٦ ، ١٨ من العاملين بالوكالة والذين أعتبروا حالات تجسس محتملة ، ولكن ماحدث هو أنه لم تثبت ضد أحد ممن حامت حولهم الشبهات أية أدلة تدينه بصفة قطعية وأنتهت العملية على نحو أصاب الوكالة بجراح عميقة

-١-

البداية

البدايـــة

- « جيفرى برايم » - ٤٤ سنة .. نحيل .. طويل .. صارم الوجه .. التحق بسلاح الطيران البريطانى عام ١٩٥٦ وخدم فى أفريقيا ثم التحق بقسم تعليم اللغات الأجنبية فى سلاح الطيران وكانت اللغة التى أختارها هى اللغة الروسية .. وفى عام ١٩٦٤ نقل للعمل فى برلين الغربية التى تقع وسط المانيا الشرقية الخاضعة للنفوذ السوفيتى وفى أول عام ١٩٦٨ رقى الى رتبة شاويش فى سلاح الطيران .

وبرايم يعد أخطر الجواسيس الذين عملوا مع المخابرات السوفيتية ، أذ أن الجاسوس ظل ١٤ سنة كاملة يتعامل مع السوفيت ويزودهم بأخطر المعلومات وأدقها ويلتقى مع عملائهم خارج بريطانيا دون أن تشك فيه أجهزة الأمن الغربية .

« وبرايم » هو الذى أقدم على الاتصال بالمخابرات السوفيتية عندما كان يعمل فى برلين الغربية حيث كان يتعاطف مع الأفكار الاشتراكية التى ينادى بها السوفيت ومن أجل هذه الأفكار كان مستعدا للتعاون معهم ، وبدأ يقدم لهم المعلومات التى يريدونها ، وعندما أنتهت مدة خدمته أتفق مع أصدقائه من السوفيت على تزويدهم بالمعلومات والتجسس لحسابهم

عقب عودته الى بلاده وفى برلين الشرقية تلقى برايم تدريبا مكثفا على طرق التجسس وعاد الجاسوس الى لندن ، كان يحمل فى يده حقيبة يد عادية ولم يفطن أحد الى وجود قاع سرى فى الحقيبة يحتوى على أوراق سرية للكتابة ويحتوى على ظروف تحمل عناوين مختلفة لعملاء سوفيت فى المانيا الشرقية الذين تقرر أن يرسل اليهم المعلومات كما تحتوى على الشفرة التى أتفق عليها بالأضافة الى ٤٠٠ جنيه أسترلينى ، وأطلق السوفيت على برايم أسم « رولاند » ، وكانت الشفرة المتفق عليها عندما يتم أى أتصال بينه وبين العملاء السوفيت أن يتلقى رسالة تقول :

« أعتقد أننا تقابلنا فى بتسبورج عام ١٩٦٨ ، فيرد « برايم » غير صحيح ... لقد كنت فى برلين فى ذلك الوقت » .

– عاد الجاسوس الى لندن وتقدم بطلب للعمل فى السلك الحكومى وكان من حسن حظه أو من حسن حظ السوفيت أن تقرر تعيينه فى مركز الاتصالات الحكومية وهو مركز يحتوى على كميات هائلة وخطيرة من المعلومات السرية .

– وبدأ الجاسوس يمارس نشاطه ، وأحيانا كان يتلقى رسائل من نوع

- وتكررت الرسائل بينما أمتلئت جيوب « برايم » بالأموال ليؤكد أنتشار العملاء السوفيت فى مختلف المواقع ببريطانيا .

-٢-

أوراق الشفرة

-٢-

أوراق الشفرة

وفى مايو ١٩٧٠ ، وقع تحت يد « برايم » بعض الوثائق الخطيرة فتبسم ابتسامة مضطربة ، وجلس يتفحص الوثائق الواحدة تلو الواحدة ، بينما تألقت عيناه فى شدة ، وهو يهتف فى حرارة :

– رائع جدا .. هذا شىء رائع .

– هذا هو الذى كنت أنشده .

– وهب من مقعده ، وأنتفضت كل عروقه فى حماس .

– وجاء الأتصال العاجل بالعملاء السوفيت بتصوير الوثائق وتركها فى مخبأ سرى داخل أحدى الغابات القريبة من لندن .

– جاء الصباح التالى مشرقا بالأمل ، فى عينى وقلب « برايم »، بعد أن أيقن أنه لم يكتشف حتى الأن .

ولقد بدا هذا واضحا جليا ، وهو يذهب الى عمله ، مرحا وفى انتظام تام حتى أن أحد زملائه أبتسم وهو يقول :

- ماذا حدث لك أيها الصديق ؟ .هل توصلت الى حل أعقد الشفرات ؟ أم حللت لغز قضية جديدة !

- أطلق « برايم » ضحكة صافية ، وهو يقول :

- تقريبا .

- ضحك زميله فى حيرة ، ثم أشار الى أحدى الخرائط المعلقة :

قائلا : حاول أن تنتهى منهما فى سرعة ...

فهناك أشارة عاجلة .

- تلاشى مرح « برايم » فجأة ، واكتست ملامحه بالجدية ، وهو يدير عينيه يمينا ويسارا ، ويوقفهما طويلا عن مضمون هذه الاشارة اللاسلكية ، بينما جلس زميله ينقر بأصابعه على سطح المكتب فى عصبية واضحة .

وفى عام ١٩٧١ طلبوا منه التوجه الى مكان قريب من أحدى محطات السكة الحديد وهناك وجد مبلغا من المال وبعض الأجهزة الخاصة بالتجسس .

- وجاءت حرب ١٩٧٣ ، وقامت مصر وسوريا بأول هجوم مشترك على أسرائيل ، وعبور قناة السويس ، وكان الانتصار العظيم الذى أذهل العالم .

واستطاعت المخابرات المصرية أن تحصل على تفاصيل الخطة الاسرائيلية المضادة لأى هجوم ، بل أن الخطة التى وضعتها القيادة الاسرائيلية لعبور القناة الى الغرب بواسطة الجنرال « شارون » والتى تم اعدادها فى شهر مايو ١٩٧٣ - هذه الخطة ، ثبت أن المخابرات الحربية المصرية استطاعت أن تحصل عليها ، وتوقعت تنفيذها عند منطقة الدفرسوار .. وتم تحصين هذه المنطقة طوال الأيام الأولى للحرب بكثافة ضخمة من القوات المصرية .

وكان النجاح الثانى لمخابرات مصر أن نجحت فى الحصول على الخريطة الكودية (خريطة بالشفرة السرية) لسيناء بما فى ذلك منطقة القناة والضفة الغربية ، وكانت القيادة الاسرائيلية قد طبقت ٩ نسخ فقط من هذه الخريطة عام ١٩٧٣ ، ووضحت عليها جميع الأسماء السرية لشبكة الاتصالات الاسرائيلية وقام المصريون بترجمة ذلك كله الى اللغة العربية ، مما يؤكد أن خطة تأمين وسائل الأتصال والاشارة الاسرائيلية كانت فاشلة تماما خلال حرب اكتوبر الأمر الذى أدى الى العديد من الاخطاء المأساوية، ولقد كان أحد هذه الأخطاء وراء مصرع « الميجور جنرال »

«البرتماندلر» قائد المدرعات الاسرائيلية الذى تلقي قذيفه مباشرة بمجرد أن ذكر «لجونين» الاسم الكودى للمكان الموجود فيه .

– ولكن كيف أستطاعت المخابرات المصرية الحصول على نسخة من التسع نسخ ؟

– وكيف استطاعت حل شفرتها ؟

– هل هناك عملاء داخل جيش وقادة اسرائيل ؟

– هذا ما سوف نعرفه انشاء الله .

– كان تتبع أخبار حرب ۱۹۷۳ من «برايم» شديدا ، ولكنه ماذا يفعل وقد أخذ مسارا أخر .

– وجاءت المفاجأة «لبرايم» ففقد الأوراق الخاصة بالشفرة وبعث الى العملاء السوفيت فى المانيا الشرقية رسالة شرح لهم فيها الأمر واعتذر عما حدث .

– ولكن كيف فقدت أوراق الشفرة ؟

– هل أستطاعت احدى المخابرات المعادية أو الصديقة التقاطها ؟

– هذا جائز جدا اذا عرفنا خطورة اللعبة بين الأمم في عالم التجسس .

– « وجيفرى برايم » يعتبر من هؤلاء المغامرون الذين يندفعون نحو الخطر ببساطة شديدة غير عابيء بما قد يحدث له ، ومن أمثال « برايم » المغامرون كثير وبرغم أن الحادث له خطورته الا أنه طريف ، ولاتلغى البساطة التى تم بها أنه تحقيق للمستحيل ، ذلك هو حادث تحليق شيطان الجو الألمانى الغربى « ماتياس رست » الطيار الناشيء بطائراته « السسنا ١٧٢ » ثلاثة مرات فوق قباب اكرملين قبل أن يهبط فى الميدان الأحمر تحت أسوار القصر الاسطورى المنيع مساء يوم ٢٨ مايو ١٩٨٧ .

– فى البداية لم يصدق المارة بالميدان الأحمر أنفسهم ولكن ما ان زالت السكرة والدهشة حتى اندفع قطار الأحداث بكل قوة ، وسوف تظل معرفة حقيقة الدوافع التى حدت « بماتياس رست » الى القيام بهذه المغامرة محل نقاش .

– فهل هناك دافع سياسى ؟

– هل حرضته أجهزة المخابرات للقيام بهذا العمل الاستفزازى ؟

– أم المغامرة كلها تحت استجابة لخاطر جهنمى استولى عليه ولم

يستطع مقاومته بحب الشباب للمغامرة ؟

– انه لم يجد نفسه فجأة فوق الأراضى السوفيتية بل تعمد ذلك ، وتعمد أن يقطع الرحلة بأكملها على ارتفاع لايجاوز الـ ١٠٠ قدم رغم أن المسافة ٥٨٠ ميلا ، وكادت طائرته تصطدم بقبه طاتورانيه القديس « بازيل » فى قصراكرملين لكى يتفادى محطات الرادار المختلفة .

– لقد نجح هذا الشاب أن يقتحم عرين الأسد دون أن يكتشف .

– فهل نجح « برايم » أيضا فى مهمته ؟

– وانقطعت الاتصالات بينه وبين السوفيت حتى عام ١٩٧٤ ، ولكنه فوجىء بالعملاء السوفيت يتصلون بأخته .

تطلعت أخت برايم من خلف زجاج نافذة حجرتها وهى ترى أحد الاشخاص يقترب من منزلها وقالت :

هناك شيء لم أفهمه بعد !

– وكان السؤال الذى أقلقها .

– من هذا الرجل القادم الى بيتها ؟

وماهى الا لحظات حتى طرق الباب وفتحت لتجد رجلا وأمرأة يتحدثان الانجليزية باللهجة أجنبية .

- قال الرجل وهو ينظر الى داخل المنزل الواسع :

- هل جيفرى برايم موجود ؟

- لا .

- ساد الصمت لحظة ، ثم قال فى لهجة صارمة حازمة :

هذه الشنطة تخص جيفرى برايم .

- وبالفعل جاء جيفرى وأخذ الحقيبة دون أن تسأله أخته عن أسباب فقدها .

- توقف أنهمار الثلج فى (فيينا) وأشرقت الشمس فى واحدة من المرات شديدة الندرة على هذا البلد الجميل .

وفى عام ١٩٧٥ وفى هذ الوقت وصل برايم الى (فيينا) ومعه مجموعة من الصور تعتبر من أخطر الوثائق .

وجاء حديث « جيفرى » التليفونى ، يحمل ظاهرة بعض التساؤلات

عن الحالة الاقتصادية ، وصفقات وهمية ضخمة ، ولكنه لم يكن فى الواقع سوى نوع من أنواع الشفرة الكلامية المعقدة ، التى أبتكرها خبراء الشفرة فى المخابرات السوفيتية .

- ولم يكد (جيفرى) ينتهى من حديثه حتى وجد عربة سوداء كبيرة ، أشار أحدهم بأحدى يديه اليه وأعطي له المظروف بما فيه من صور ، وانطلقت العربة بأقصى سرعة لها لتختفى عن الأنظار .

- وفى مارس ١٩٧٦ تم نقل « جيفرى » الى مركز الاتصالات فى « شلتنهام » ومن هذا المركز حصل برايم على أخطر المعلومات وأخطر الوثائق .

ويعتبر مركز الاتصالات فى « شلتنهام » من أخطر ومن أحدث مراكز جمع المعلومات وقد أقيم هذا المركز فى بريطانيا بالتعاون مع وكالة الأمن الوطنية فى أمريكا ويستخدم المركز أحدث ماوصلت اليه التكنولوجيا فى جمع المعلومات وفى تحليلها وفى التجسس على الحياة العسكرية والاقتصادية والسياسية للعديد من الدول بما فيها الاتحاد السوفيتى نفسه .

- وقد أستطاع هذا المركز أن يعلم بالغزو السوفيتى لافغانستان قبل

وقوعه بثلاثة أسابيع وأستطاع أن يرصد كل التحركات فى القواعد العسكرية داخل حلف وارسو فى الأرض والجو والبحر . والأخطر من كل هذا يعتبر هذا المركز العقل المفكر لبريطانيا فيما تعرضت لهجوم نووى وهو أمر يتطلب توصيل كل المعلومات عن قوات حلف الاطلنطى ووضعها أمام العاملين فى المركز .

– وجاء اليوم الذى تنفس فيه « جيفرى » بارتياح بالغ ، حينما صدر الأمر بنقله الى أخطر مركز للمعلومات وصدر قرارا بترقيته الى وظيفة رئيس قسم فى المركز .

– ابتسم « جيفرى » وهو يستند فى استرخاء الى ظهر مقعده ، قائلا :

– الأن .. فقط أستطيع أن أخدم أصدقائى جيدا .

– وجاء صوت مفاجىء لصديق فى المركز :

– جيفرى ..... جيفرى .

– تنبه جيفرى بعد أن سرح كثيرا الى مصدر الصوت

قال له الصديق :

– هناك أشارة سرية هامة ...

– وغدغت العبارة حواسه ، ولكنه احتفظ بملامحه الصارمة وهو يقول :

– حسنا ... حسنا .

– تحرك « جيفرى » ليواصل هوايته فى جمع المعلومات الخطيرة .

– نظر « جيفرى » الى صديقه وأحس أن هناك بريقا شديدا ، وجاءت أسئلة كثيرة ، دارت فى عقله ، ولكن السؤال الذى طرح نفسه عليه هو:

– لماذا ذكره بريق عينى صديقهبعيني الأفعى ، وهى تستعد لمهاجمة فريستها ؟ ، وأنبأته غريزته أن ذلك البريق يحمل خطرا قريبا . أن عليه أن يكون حذرا ، فقطع علاقته بأصدقائه مؤقتا ليتجنب الأعين التى تلاحقه، وحتى يكون فى مأمن .

– أتاحت له هذه الترقية حضور العديد من الاجتماعات التى كانت تثار فيها موضوعات على قدركبيرمن الأهمية والسرية .

واستطاع « جيفرى » أن يرسل الى المخابرات السوفيتية مايقرب من ٥٠٠ فيلم تصور أخطر الوثائق السرية داخل المركز .

-٣-

الخدعة الكبري

-٣-

الخدعة الكبري

توقف كل شيء .. كل شيء

فتح « برايم » عينيه ... ونظر الى ساعته .. عقاربهما تشير الى السادسة أغمض عينيه وحاول أن يتذكر آخر منظر فى الحلم ..

وبدأ التساؤل .. لماذا يفعل كل هذا ؟

– آمن أجل المال .. ؟

– آمن أجل السلطة .. ؟

– قادته قدماه الى أحدى الشوارع الجانبية ، سار بخطوات بطيئة لكنها ثقيلة مثل الزمن ... ملأ الحزن عينيه ، تطاير شعره كأنه عاصفة هوجاء إجتاحت الكون ، ثيابه البسيطة المحدودة جعلته في السبعين من العمر .

– سار رافع الرأس .. قال عنه أصدقاؤه إنه مخلص فى عمله ساحر ..

ولكن عندما يتذكر خيانته العظمى ، كان يتضاءل ويتحرك كأنه سلحفاة خرجت من جحر كبير .

أحس كأنه يموت كل يوم - أصبح يرى نفسه مجرد طيف ، شبح ، يتحرك بعد أن سلبته الأيام قوته الأولى .

- لاتمر لحظة من حياته التعسة دون أن يسأل نفسه كثيرا .

- لماذا كل هذا ؟

- ما الذى دفعنى لهذه الخيانة العظمى ؟

- كان قلبه شديد الاخلاص ، عشق الحب والحرية والعمل الجاد .. أعطى نفسه للعمل ، وعيبه أنه لم يفرق بين البشر .. أحب الألم ..

أما السعادة فلم تأتى بعد ...

ربما تأتى بعد أن يتزوج ...

أما الانتصار فأنه يسكره ، يجعل رأسه فى السماء ومن كثرة أنتصاراته التى حققها فى التجسس كره ذلك كما يكره الملل .

- عندما كان شابا تعذب من شدة حماسه الهموم ، فأراد أن يثمر ذلك فى شىء يربحه فجرفه تيار الخيانة العظمى ، ليبتلعه التيار كما أبتلع الكثير من قبله ...

– وعندما آوى « برايم » لفراشه بقى مفتوح العينين مستيقظ الحواس ، وينسج فى خياله للغد آمالا كبارا .

– وجاء الصباح التالى . كان يعنى بالنسبة له شيئا مختلفا ... فقد جاءته رسالة سرية تشكره على مجهوده العظيم ... فظل يغنى بصوته أغنيته المفضلة .

وجاء نهوضه مبكرا ، نهض ببطء ... سار بخطوات ثقيلة فى حجرته ... وجاءه الاحساس الأخر باليأس .. إنه يموت كل يوم ومع ذلك مازال على قيد الحياة ... أنفاس خفيه تربطه بيأسه . بخطواته المهتزة المرتعشة .. فى الماضى كان أغلى أمنياته أن يخدم وطنه ...

– والأن ماذا يفعل ؟

لقد سار فى الطريق ... وليكن مايكن .

– وقد تأثر « جيفرى » بالجاسوس الالمانى « جورج سيلبر » الذى عمل أيام الحرب العالمية الاولى فى إحدى منظمات الأمن الرئيسية فى بريطانيا ، هى هيئة رقابة البريد ، وهو كان يعيش فى أمريكا بعد أن طاف بكثير من بلاد العالم ، يتكلم بيسر عدة لغات ، واجتاز الحدود الى كندا

ومنها وصل للعمل كرقيب للأمن فى رقابة البريد وقبل تطوعه . ولقد أهتم كثيرا بالمعلومات بين السطور التى يطلقها فى أعمال كتاب الرسائل بل أنه كان أيضا يبعث بالرسائل آمنا مطمئنا بعد أن يختمها بخاتم الرقابة المسلم له ، دون أن تتعرض رسائله بحال ما الى أية رقابة .

– وكان يرسل رسائله الى أسير حرب لا وجود له ، وهى فى الأصل صندوق بريد يخص المخابرات الالمانية .

–وكان « سيلبر » شديد الحذر حيث كان يعتمد على ذاكرته ، ولم يفكر أن يحرر سطورا أو ينقل نصوصا من أى خطاب ولكنه كان يصور بعضها فى غرفة أستأجرها ثم يعيدها فى الصباح التالى .

– واستمر أرساله للمعلومات الهامة الى آلمانيا ، وفى إحدى الأيام قرأ خطابا كتبته فتاة لصديق لها ، وكانت الفتاة تشعر بسرور وسعادة فأن أخاها البحرى الذى منح وساما لجرأته قد عين فى قاعدة بحرية قريبة من منزلها ومن ثم فأنها تراه كثيرا وقالت الفتاة فى خطابها أن هذه المهمة التى يتولاها شقيقها غامضة ولها صلات وثيقة باعادة أعداد السفن التجارية القديمة .

– وضع « سيلبر » يده على هذه المهمة وقرر أكتشاف أمرها ، ذهب الى منزل الفتاة وقدم لها نفسه على أنه أحد رجال رقابة البريد وقدم لها نصيحة بعدم ذكر هذه الأحداث فى خطابها مرة ثانية .

وجاء الشكر منها على هذه النصيحة الغالية ثم راحت تتحدث معه بطلاقة . وجاء سؤاله الهام جدا عن سر السفن "Q" ؟.

وكانت دهشته كبيرة عندما عرف أن هذه السفن نقل قديمة تسلح تسليحا قويا جيدا وتخفى مرافعها وراء ألواح تسقط بسرعة لتستطيع أستخدامها عند الحاجة .

وكانت الفكرة بسيطة ولكنها حققت نجاحا كبيرا ..

فأن السفن ترفع أعلام الدول المحايدة وتمخر البحار فى هدوء ، فاذا أقترتب منها غواصه المانية معادية ، قام ملاحوها بمظاهر الذعر والاضطراب، فاذا ماظهرت الغواصة على سطح الماء واقتربت لسلب السفينة المستسلمة ، رفع ملاحو السفينة المذعورة العلم الأبيض وهم يستسلمون . فاذا ما أقتربت الغواصة على مرمى المدافع ، تحول الاستسلام والذعر الى حركة غير عادية تبدأ بعدها المدافع عملها بسرعة فتصيب الغواصة وتغرقها

بمن فيها .

وبعث « سيلبر » بهذه المعلومات الهامة الى المانيا ، وظهر سر غرق كثير من الغواصات الالمانية وأصبح التفوق فى الاغراق للبحرية الالمانية على نظيرتها البريطانية ، وأدت تسرب هذه المعلومات الى القبض على « سيلبر » وهو يقوم بقراءة الخطابات .

-٤-

بئر الخيانة

-٤-

بئر الخيانة

وجاء يونيو ١٩٧٧ حيث تزوج « برايم » وكان هذا الزواج نقطة أساسية فى حياته . عندما أنتقل الى « شلتنهام » أستأجر غرفة فى منزل أحدى السيدات وكانت هذه السيدة وهى فى الثلاثين من عمرها قد سبق لها الزواج وأنجبت ثلاثة أولاد ، ولكن زواجها لم يستمر طويلا وتركها زوجها هى وأولادها الثلاث فأضطرت لتأجر غرفة من المنزل حتى يتوافر لها مزيدا من النقود .

وأحب « برايم » صاحبة المنزل وعرض عليها الزواج وبالفعل تم زواجهما فهى سيدة فاضلة لاتمر عليها لحظة دون عمل ، تنظف ثم تخيط وتحاول أن تفكر، التغيير الوحيد كان فقدها الزوج ، وتراعى صحتها شيئا فشيئا ، ولكن عندما جاء « برايم » الى بيتها دبت أواصر الحياة فى عروقها وتجدد الأمل بعد أن كاد يختفى .

– أنبسطت أسارير الزوجة وفكرت بدهشة مستفيضة :

– ماذا كان يحدث لو لم يحضر « برايم » الى بيتها ؟

- لقد كانت تعرف الاجابة .

- أنها الوحدة القاسية ، والمعاناة التى لن تنتهى أبدا .

- أبتسمت الحياة مرة أخرى « لبرايم » فقد كان يائسا لايعرف الى أين يتجه ؟

- عندما كان يتذكر ماضيه المؤسف ، يشعر بأن الأرض تغوص به ... وجاءت الأيام تجرى والأحداث تتلاحق عندما ظهر بقامته الطويلة عند آخر المنعطف ... سار بخطوات بطيئة لكنها ثقيلة مثل الزمن .. يتوقف أحيانا لينظر الى بعض الحوانيت ، لعلها تنسيه ماضيه المؤلم .. ولكن هيهات ، فقد كان كل شيء يطارده .. ضم شفتيه الى الأمام ليداري تقززه من هذه الدنيا ، تطاير شعره الاسود الكثيف كأنه عاصفة هوجاء أجتاجت شوارع المدينة بأسرها ، ثيابه البسيطة جعلته يبدو فى السبعين من العمر .

وأخيرا جاء القرار .. قبض يديه في عصبية وراح يخبط بها على جدار احدى المساكن وهو يقول :

- لن أعود ابدا الى هذا المسلك السيء .....

فكر أولا فى الهرب واللجوء الى الاتحاد السوفيتى .. بالفعل حجز

تذكرة الى مدينة « هلسنكى » فى ١١ سبتمبر ١٩٧٧ ولكنه فى اللحظة الأخيرة قرر البقاء بجانب زوجته الطيبة .

ثم عاوده الاحساس بالهرب مرة أخرى ، فحجز تذكرة جديدة للسفر بعد أسبوع ولكنه أحس بالضعف من جديد ناحية زوجته فألغى سفره ، وتغلبت العاطفة على كل أحاسيس « برايم » وقدم استقالته من عمله يوم ٢٧سبتمبر وقطع علاقته حسب قوله بالسوفيت وعمل سائق تاكسى ، ولكن فى أبريل ١٩٨٠ تلقى محادثة تليفونية تطلب منه السفر الى«فيينا» فسافر ومعه مجموعة جديدة من الأفلام ،ومرة أخرى سافر لهم فى أكتوبر ١٩٨١ ، وكانت رحلته الى برلين .

وعاد ليجد زوجته الطيبة فى انتظاره ، كانت أمرأة صابرة طيبة مجدة تعمل فى عزم لم تعرفه من قبل عندما تجلس بمفردها كانت تقول نفسها:

– تجلدى ، وقاومى آلام عينيك الواهنتين ، وأوجاع ظهرك الذى زاد تقوسه ، وعناء سهر الليالى .

– بهذا كانت الزوجة تعلل نفسها ، وكانت تقر بأنها تستجمع أفكارها بصعوبة لكل مايدور حولها من تغير زوجها المفاجىء وأخيرا أسندت بيدها

رأسها الذى أخذ يترنح مع تردد أنفاسها ، وراحت فى نوم عميق .

وانفرج باب الغرفة ، وأطل « برايم » بوجهه المتهلل ، وتوقف قليلا عند مشهد زوجته النائمة ، وقد أشفق عليها من كثرة متاعبها فأترعت مشاعره نحوها بالمحبة والاشفاق ، وأحست به وعندما رأته أمامها ، ملأت فؤادها بهجة وقوة وهى ترى امارات غد مشرق جميل .

وأنار حضور « برايم » الفرح الوجه الوسيم ، ولم تستطع الزوجة أن تجيب سوى كلمات قليلة ، ولكن ماسطر على وجهها وفى عينيها من فرح وأمل ، وما عبر عنها أنفراج كفيها فى مناجاة الشكر لله ، وأحست مع نفسها كأنها لم تتعب يوما ولم يعبها المرض ، فهى قوية « ببرايم » ذلك الزوج الذى أحبته وأخلصت له ،وكانت مشرقة الروح والوجه تماما ، كأن الحياة عادت اليها من جديد .

– وفى اليوم التالى خرج « برايم » من بيته يسير فى شوارع المدينة الواسعة لايدرى الى أين يذهب ؟

كانت أفكاره تقلقه وهو يقول لنفسه :

– الى أين أنا ذاهب ؟ ... لا أدرى ؟

- أنني أسير في طريق مسدود ..

هذا الطريق سوف ينتهي بي الى الأعدام ...

وماذنب زوجتي الطيبة ؟

- أحس « برايم » بتعب قدميه فوجد أحد المطاعم فدخله وجاءه نفس الاحساس السابق وهو يقول :

- هل وصلت الى هذا الحد ، لقد وجدت في نفسي شحنة من المقت قادرة على نسف هذا المطعم بكل مافيه من زبائن وعمال وبكل ما احتواه من موائد ومآدب ، ولكنني مارست أقصى مايمكن لإنسان في مثل هذا الموقف أن يمارسه من ضبط دماء وأعصاب ، لكني أقول لنفسي بأنني وبعكس ماذهب اليه تفكيرها لست غاضبا أو حزينا ، وانني سعيد لأنني أرى الحقيقة تتكشف أمام عيني بعد سنوات من الكذب والغش والخداع .

- ولكن مشكلتي لاتجد حلا .. !

فأنا غير قادر علي الاعتراف لأحد ! حتى زوجتي ..

- تساقطت الدموع من عينيه . وهو يقول :

لقد سقطت .. نعم لقد سقطت في بئر الخيانة .

انتحار جاسوس

-٥-

إنتحار جاسوس

تم نقل « برايم » من مركز لندن الى مركز « شلتنهام »، وهو يعتبر من أخطر المراكز للمعلومات ليس فى أوروبا ولكن فى العالم، وكان الترابط بين هذه المراكز فى انجلترا ومثيلتها فى أمريكا يعد من أهم الروابط التى تربط دول الحلفاء معا ، وكما أنشأت هذه المراكز السرية فى انجلترا أنشئت أيضا فى أمريكا بنفس السرية ، فكان انشاء ادارة الأمن القومى بقرار من «ترومان » فى ٤ نوفمبر ١٩٥٢ ، وانشىء لها فيما بعد من تكلف ما يقرب من ٣٥ مليون دولار ، وقد شيد من ثلاثة طوابق ، وهو من الاسمنت المسلح والزجاج والصلب على شكل مربع لحرف A ، وعلاوة على عشرات المكاتب ومواضع الالات الحاسبة الالكترونية بالطابق الارضى فهناك مقصف يسع ١٤٠٠ شخص ، وبهو للاستماع (٥٠٠ شخص). وثمانية مشارب ومطاعم ، ومكتب بريد ، وعيادات ومستوصف ، وفرع لبنك « لوريل » الحكومى ، وتوجد أجهزة لأحزمة النقل المأمونة ، تمر خلال الطابق الأرضى وتحمل أوعية توضع فيها الوثائق لايصالها الى ٨ محطات فرعية ، كما يوجد نظام لأنبوب هوائى المانى يمكن أن يقوم

بتفريغ ٨٠٠وعاء فى الساعة ، وذلك فى مواضع بين المكاتب تختار بواسطة قرص ذى مؤشر عند كل محطة ، وكان أنشاء وكالة الأمن القومى عد ولايزال يعد من القرارات السرية ، وبذلك أسدل عليها ستار من الكتمان منذ أنشائها حتى الأن ، بل هى أكثر خفاء وصانة من وكالة المخابرات المركزية ، واحتياطات السرية تبدأ من خارج الوكالة ، فالمبنى تحيط به حلقة من ٣ أسوار ، تتوج قمم السورين الداخلى والخارجى أسلاك شائكة نسقت على شكل " ٧ " ، أما السور الأوسط ففيه خمس جدائل من الأسلاك المكهربة ، وزودت البوابات بجهاز الكترونى يشتمل على مرايا ومصابيح ، وعند اغلاق البوابات يبعث الجهاز بأشارات ضوئية يطن بها على سبيل التحذير . والبوابة التى فى الجانب الشمالى من المبنى تظل مفتوحة ٢٤ ساعة فى اليوم .

أما فى الداخل فتوجد تقسيمات بالغة الدقة تفصل بينها حواجز عديدة لايباح فيها للموظفين أن يدخلوا مناطق لايعملون بها دون أذن خاص . وهم يحملون شارات ملونة خاصة بالمناطق التى يعملون بها . وهناك حراس مسلحون يعترضون مداخل الأماكن المحظور دخولها بصفة خاصة .

والوثائق البالغة السرية يتحتم وضعها فى خزائن حديدية يغلق عليها

بأقفال ذات ثلاث قلابات (أى أن الجهاز الآلي للقفل يجب أن يدار ثلاث مرات بمفتاح قبل أن يتم فتحه). أما المكاتب التى يخرج منها أقل الوثائق سرية من حيث الكم فقد تقوم هذه المكاتب بتخزينها فى أدراج أو فى دواليب الملفات . واذا أستدعى الأمر أخذ أوراق مصنفة من وكالة الأمن الى الوكالات الاخرى فلايذهب بها موظف بمفرده اذا كان سيستقل سيارة خاصة بل لابد أن يرافقه آخر .

وتتخذ احتياطيات مماثلة عند استخدام المواد الشفرية ، بل وتمتد الاحتياطات الى الخطابات الخاصة بالمواطنين ، فالظروف الخاصة بالوكالة على عكس نظائرها فى غيرها ، كما تعنى الوكالة بصياغة هذه الخطابات بحيث لاتكشف سوى أقل قدر ممكن عن حقيقتها .

وبرغم هذه الحيطة ففى ١٩٦٨/٧/٢٣ ، أنتحر ساع بالوكالة حين تحقق أن حيلته فى بيع الاسرار الشفرية الى الدوس توشك أن تنكشف ، وأتضح أنه خان بلاده لقاء ٦٠ ألف دولار أنفقها فى شراء قارب للنزهة وطيارة مائية وسيارة صغيرة من طراز جاجوار وسيارتين كاديلاك من أحدث طراز ، بالاضافة الى ما أنفقه فى المتنديات وعلى خليله شقراء ، والظاهر أنه كان يهرب الوثائق البالغة السرية تحت قميصه (وكان الحراس

لايفتشون الموظفين وأن كانت الحقائب تفتش). ولم يفطن أحد الى ما كان يصنعه برغم أنه كان يذهب الى مكان عمله فى السيارة الجاجوار أو فى احدى سيارتيه الكاديلاك ، ويذهب الي السباق للاشتراك فيه بطيارته المائية ، ولم يخطر للوكالة قط كيف يتهيأ للرجل هذا الانفاق عن سعه فى نادى اليخوت ؟.

ولكنه وقع فى الفخ بسبب طمعه وليس نتيجة ليقظة الوكالة ، فقد خشى من احتمال نقله بعد انتهاء المهمة التى كان يقوم بها فتقدم بطلب السماح له بترك الجيش والاحتفاظ بعمله فى الوكالة كموظف مدنى ، وهنا بدأت تحريات كثيرة عنه !

ولكنه فى النهاية أنتحر ....

– وعلى الجانب الآخر فكثيرا ماتكون السفارة الروسية لدى دولة ما هى اللقاء لأفراد احدى حلقات التجسس ، فهنا تبدأ الضمانات المادية التى تكفل الأمن والحماية ، ففى كندا كانت مفاتيح الشفرة تحفظ فى حقيبة مختومة داخل خزانة من الفولاذ موضوعة فى غرفة لها أبواب فولاذية مزدوجة ونوافذ ذات مصاريع فولاذية يغطيها زجاج أبيض معتم وحواجز حديدية ، وتقع هذه الغرفة فى جناح مستقل بمبنى السفارة المشيد بالآجر

والذى يحيط به سور وفى الستينات كانت السفارة بواشنطن تحتفظ بمواد كيماوية تأتى على حزمه كبيرة من الورق فى ثوان اذا أريد اعدامها فى حالة الطوارىء .

– ويدل على اهتمام السوفيت بالأمن والسرية أنه لما شب حريق فى سفارتهم فى « أوتاوا» كندا فى رأس السنة ١٩٥٦ فضلوا أن يدعوا السنة اللهب تأتى عليها على أن يسمحوا لرجال الاطفاء الكندين بالدخول .

– ويقضى أرسال الوثائق بتصويرها ، والأفلام المتعلقة بها لاتحمض حتى يتسنى للضوء أن يتلفها اذا ما عمد لص الى فتحها وكشفها ، ثم ترسل الأفلام فى الحقيبة الدبلوماسية .

ويتبع هذا الاجراء فى الاتصال بين السفارة وموسكو ، فحين يصل الى السفارة فيلم عرضه ٣٥ م يقوم الكتبه بتحميضه وطبع نسخه مفردة مكبرة من كل اطار واتلاف سبيلها ، وعندما تنبىء موسكو بعلمها بوصول فيلم السفارة تقوم الأخيرة بأحراق الوثائق الأصلية ، واتخذ الروس احتياطا جديدا وهو استخدام وعاء مغلق مصمم بحيث يريق بطريقة

أوتوماتيكية حامضا يتلف الفيلم الموجود بداخله اذا ماعبث به عابث ، وكانت مفاتيح الشفرات الجديدة ترسل فى الحقيبة الدبلوماسية فى ظرف معنون باسم ضابط الشرطة السرية ، وهو بدوره مختوم بداخل ظرف خارجى موجه بأسم السفير شخصيا . وهذه المفاتيح هى من نوع كراسه المرة الواحدة ، ومع أن فروع البعثة الدبلوماسية كلها لها مفاتيحها الشفرية الخاصة ، فأن جميع البرقيات المشفرة التى تصل الى السفارة تبدو متماثلة ، ومفاتح كراسة المرة الواحدة تلعب أيضا دورا فى الخطابات المصورة فوتوغرافيا ، وهذه الخطابات محررة بالدوسيه وتستخدم بها رطانة التجسس شبه السرية ، وكراسة المرة الواحدة تكفل هذه السرية لجميع الرسائل الخاصة بجواسيس روسيا .

فالرسائل الهامة التى كانت تبعث بها وزارة الخارجية ، كان لايقوى على قراءتها الاعداء أو المحايدون أو الحلفاء ، وأية خطط كان قد دبرها الاتحاد السوفيتى ضد الدول التى أصبحت بعد الحرب من توابعه أو خصومه ظلت بين أسراره أشدها خفاء وأبلغها كتمانا .

-٦-

الجوحار في السويس

-٦-

الجوحار في السويس

– أعتاد « برايم » كلما خرج من بيته فى المساء أن يترك زوجته الطيبة في البيت . وعندما وصل الى أحدى محطات اتوبيس العاصمة بدأ يتحرى عن العنوان الذى يقصده .

وكان ذلك العنوان أحدى المكتبات الشهيرة ، واتجه « برايم » الى داخلها وأخيرا ظهر أحد الأشخاص وهو يرتدى قبعة سوداء .

– تقدم اليه « برايم » وسأله عن وقت الساعة ...

– فرد عليه الآخر وقال :

– العاشرة مساء ...

– كان السؤال سخيفا لا محل له ، ولكنه كان قد بدأ يضطرب عندما أخرج الرجل لفافه بها مكافأة مالية على ماقدمه من معلومات ثمينة ...

وفى اليوم التالى حملته سفينة ركاب متجهة الى فرنسا ...

– جلس برايم وهو يكتب ذكرياته اليومية ، ففى الصفحة الاولى قال:

– اكتب كلماتي علي ظهر المركب المتجهة الي فرنسا ،

وأنا أطلق عليها لفظ مركب لأنها ليست سفينة بالمعنى الذى نتخيله في عابرات المحيطات ، على جانبي السفينة ممرات تطل على البحر ، تلهبه الشمس بسياطها فيبرق بوهج خاطف وأحيانا أنظر اليه من خلف النافذة فأجده يسبح في غلالة بيضاء كثيفة أعتقد أنها كانت التمهيد للمطر الذى انهال اليوم وهو يبلل النافذة التى اكتب بجوارها ، فالنافذة تكاد تكون نظيفة ، بل والحجرة أيضا .

قطرات المطر الساقطة من السماء ترتطم بكل أنحاء السفينة وسط غيامه . قد تكون هذه الغيامة غضب أو شعور بالأسى والحزن .. وعجبا لهذا الكون الفسيح !

وعلى ظهر السفينة لاشيء غير الراحة ، وربما القراءة وبعض التجوال أو النوم فهو يجعلك تستريح من التعب ..

– لا أريد أن أعود الى بريطانيا ..

– لا أريد أن أعود الى التوتر والقلق ، فما أحلى الهدوء .. والفراغ ليتنى لم أقع ..!

– نعم لم يتهمنى أحد حتى الأن ، ولكن سيف العدل المسلول بقى

مسلطا على عنقي . ولكم كان ميثاق الحرية ينص بين سطوره ويفرق بين انسان وانسان ، الا أن المظاهر تدل على نقيض ذلك فرجل يخلق غنيا وآخر فقيرا .. ورجل يخلق ذكيا وأخر غبيا .. ورجل يزج به في ظلام الليل ، اذا ما اقترف ذنبا ، وأخر لاترقى اليه الشبهات ولو كان من أعتى العتاة !

– وكنت أنا من الفئة الأخيرة المحظوظة ...

ولكن هل استطعت فعلا أن أنجح ، هل خدعت أصدقائي كما خدعت بلدى ؟.

لقد كان التضاد في الجريمة والعقاب ، والجموح والكبح ، والانسانية والهمجية ! ، كل هذه القوى تتصارع وتتصادم من أجل السيادة .. فتارة ينتصر القانون وتارة ينجح الطغيان !

ولكم حلمت بنفسي وأنا أدخل قاعة المحكمة ... فالقيت في زاوية من زواياها القاضي والمستشارين ، وتذكرت كلماتهم المكررة :

« أنت مذنب .. لقد خنت وطنك ..سوف تلاقي أسوأ العواقب يابرايم »

ولقد أرتفع صوتى عاليا : أنا برىء .

– فهل حقا أنا برىء !

– بينى وبين نفسى لست بريئا .. ولكنى خائن بكل ماتحمله هذه الكلمة من معنى ، فأمام ناظرى يمثل الخطر المريع الهائل ومستقبلى الذى كاد أن يتحطم .

– أخرج « برايم » ورقة من جيبه مكتوب عليها :

« أذهب الى : ٢١٩٦٣، فى .. ١٢٣ الساعة ١٣ ... »

وكانت هذه الورقة بما تحويه شفرة من الشفرات السرية المعتادة التى كان يتلقاها « برايم ».

– ولقد كانت أفضل دولة فى مجال تحليل الشفرة من غير المحاربين هى السويد . الدولة المحايدة المحفوفة بالأخطار ، فقد استخدمت فى بادىء الأمر كسر الشفرة لتكشف نوايا « هتلر » بالنسبة اليها ، وفيما بعد استخدمت المخابرات لتكون على علم سابق بمجموعة مختلفة من الاحداث السياسية .

– جلس « برايم » صامتا فوق مقعد ضخم ، ابتلع كل جسده ولكنه

كان شديد التوتر ، وكان ينفث غضبه مع دخان سيجارته ثم اطفأها وعاد يلتقط آخرى وأشعلها .. ثم قرأ نص الشفرة جيدا كأنه يحفظها عن ظهر قلب ثم أشعل الورقة وهو ينظر اليها ويقول :

- أنني أحترق مثلك تماما !!

- عادت ذاكرة « برايم » مرة أخرى الى السويد تلك البلدة البارعة ، كانت البرقيات المرسلة على أسلاك مكتب البريد السويدى بواسطة التلغراف الكاتب تنسخ جميعها ، وراحت النرويج والدانمارك وفنلندا ترسل ما تلتقطه من برقيات الى السويد التى كانت الوحيدة التى تملك مكتبا جيدا لتحليل الشفرة ، وهذه البرقيات مكنت السويد من عقد مقارنات مثمرة جدا بين النص الواحد المشفر بمفاتيح مختلفة .

ولعل أكبر عمل فى تحليل الشفرة قام به السويديون وكانت له نتائج بعيدة الأثر هو حل « ارن بيرلنج » للألة الالمانية « سيمنز » كان الجيش الألمانى فى النرويج والسفارة الالمانيةفى السويد واثقين من مقدرة الالات على أرسال البرقيات لاسلكيا الى برلين مباشرة ، وكانت المبرقات الكاتبة فى مكتب الشفرة السويدى تلتقط المراسلات الالمانية وتسلمها الى

« بيرلنج » لمحاولة حلها .

- وقد لاحظ ذات مرة أن النص الشفرى يحتوى على ٢٦ حرفا ، ٦ أرقام (تحت العشرة) ، أى ٣٢ شكلا أو ٥٢ ، وقد أوحى اليه بشفرة قائمة علي ميرقة كاتبه لأنه كان يعلم أن المبرقات الكاتبةتستخدم شريطا مثقوبا به خمسة ثقوب . ولكن هذا هو كل ما كان يعرفه ، وكان لابد له أن يحصل على كتاب عنها ليعرف كيف تعمل ، ولقد استنتج ان الآله القائمة على أساس شفرة « بودو » تقوم بالتشفير وذلك بتبديل مواضع الاتصالات الخمسة وان كل موضع من هذه المواضع يمكن التحكم فيه بعجلة مفتاح خاصة به ، وان عدد إبر التحكم فى محيط هذه العجلات يختلف من عجلة الى عجلة ، وذلك لاطالة الفترة على قدر الأمكان .

وخلال أسبوعين أمكنه حل الشفرة ، وقام ميكانيكى سويدى بصنع جهاز حسب مواصفات « بيرلنج » كان يحل البرقيات الالمانية التى يريد السويديون قراءتها ، وهكذا ساعد محللو الشفرة السويديون بلادهم على الملاحة فى مياه الحياد الخطرة ، بينما الجميع حولها يخوضون الحرب .

– أطلق « برايم » ضحكة عالية ، ولكنها لم تكن من القلب وقال :

يالها من شفرة معقدة ولكنها بسيطة الحل !!

وبعد لحظات شعر بالتعب يتسلل الى جسده ، وبالنعاس يداعب جفنيه، فرفع عينيه المحمرتين عبر نافذة السفينة وراح فى نوم عميق ولكنه بعد عشرون دقيقة استيقظ ليجد نفسه يهتز كما تهتز السفينة ، ولقد كتب سطورا كثيرة عن ذكرياته ، وتوقف عند البعض وهو يقول :

السويس ... هذه البلد المصرية أننى أتذكرها جيدا فقد استخدمت فى رسالة من رسائل كود الكلمات الغامضة وأطلقت فى جميع أنحاء فرنسا عملية تخريب شاملة للنقل والمواصلات الالمانية فعندما أذاعت محطة الاذاعة البريطانية بالفرنسية « أن الجو حار فى السويس » بدأت المقاومة تنفيذ الخطة الخضراء التى تنص على تخريب طرق السكك الحديدية والامداد ، وباقتراب يوم غزو الحلفاء لشاطىء فرنسا الشمالى ارتفع عدد هذه الرسائل حتى بلغ العشرات . وأخيرا فى الساعة ٦,٣٠ أذيعت الرسالتان الحاسمتان وأعقبتهما مئات من الرسائل الاخرى مثل « السهم يخترق الصلب ». والتقط الالمان هذه الرسائل وتعرفوا عليها ولكنهم

تجاهلوها . ولأسباب لم توضح أبدا لم ينبه الجيش السابع الالمانى الى يوم الغزو رغم أنه كان الجيش الوحيد الذى تقع عليه وطأة الهجوم عبر المانش.

وكان عمال اللاسلكى الفرنسيون يقسمون الاشارات الألمانية التى يسمعونها الى عالية جدا ، وعالية ، ومتوسطة العلو ، وضعيفة ، وبالغة الضعف وبالتقدير الكمى لهذه القراءات ورسم الدوائر على الخرائط فى نطاق دوائر مساوية للمسافات المقدرة (لمصادر اذاعة هذه الاشارات) استطاع الفرنسيون فى أقل من أسبوعين بعد نشوب الحرب ، من تحديد المواضع المحتملة لمحطات الالمان . وسجل الفرنسيون أيضا أشارات النداء وحجم حركة الارسال والمراسلين لجميع هذه المحطات ، وسرعان ما انقسمت هذه المحطات الى أربع شبكات رئيسية أفترض الفرنسيون أن كل واحدة منها تنتمى الى قوة محاربة .. وانماط المراسلات حددت المحطات الخاصة بمراكز القيادة ، وسرعان ما أظهر الحجم الفرق بين محطات الفرسان السريعة الحركة والأرسال ومحطات المشاة ، وكشفت التوقيعات العرضية الواضحة عن أسماء القادة ، وكان هذا أول تحليل لحركة العدو عن طريق اللاسلكى .

أما الى أى مدى كان يعول الحلفاء على مخابرات الاتصال فأننا نلمسه فى الايام الاخيرة للحرب فى مسألة ضياع « سيجابا » وهى التى تعرف أيضا بـ « م - ١٣٤ - س » كانت جهازا دوارا مثل الجهاز الالمانى اللغز ويحمى الاتصالات ذات المستوى الاعلى . وكان فرع وكالة أمن الاشارات التابع للجيش الذى كلف بتجربة نظم الشفرة الامريكية ، قد فشل فى كل جهوده لكسر البرقيات المشفرة بجهاز «م-١٣٤- س».

ولكن كل البراعة الشفرية التى تضمنتها هذه الآلات كان يمكن أن تذهب هباء لو وقعت احدى الآلات فى أيدى العدو ، ولو لفترة قصيرة، ولهذا فرضت حراسة مشددة ، لم تفرض مثلها على أية منطقة حربية . على المنطقة التى بها هذه الالات التى أطلق عليها أسم مختصر هو« آبا » ولكن قام أثنان من حراس « آبا » برتبة رقيب بأيقاف سيارة النقل التى كانوا ينقلون عليها الخزائن الثلاث الخاصة بالفرقة أمام منزل فى «كولمار» بفرنسا ، وقاما بزيارة قصيرة لأحد الأصدقاء ، وعندما عادا كانت السيارة والخزائن قد اختفت ، وساد الذعر ، واهتم ايزنهاور بالأمر ، وارسلت فرق مكافحة الجاسوسية، وبذلت جهود مضنية ، واخيرا بعد ٦ أسابيع عصيبة عثر على خزانتين من الخزائن المفقودة التى تزن كل منها ٣٠٠ رطل

مغروزتين في الطين ، وكان يبدو من المحتمل أنهما اسقطتا في نهر « جيسين » ، وجيء بالغواصين للبحث عن الخزانة الثالثة ، وتقرر حجز المياه عن المجرى بإقامة سد .

وفجأة عثر على الخزانة الثالثة ، ودل التحقيق على أن سائقا عسكريا فرنسيا فقد سيارته النقل في « كولمار » قد استعار السيارة الامريكية بينما الحارسان غير موجودان ، ولكنه خاف من احتمال اتهامه بسرقة الخزائن فدفع بها من فوق جسر على نهر « جيسين » .

وعلى الجانب الالماني كانت هناك كتيبه المخابرات الجوية رقم ٣٥٠ اتخذت القيادة الالمانية مركزا لتحليل الشفرات وتحليل الحركة ، كما كانت هذه الكتيبة تقوم بدراسة أجهزة رادار الحلفاء ونظمهم الملاحية اللاسلكية والبحث عن أفضل الوسائل للتشويش عليها وتضليلها .

وكانوا يختبرون الشبان بحل ألغاز الكلمات المتقاطعة ويلحقون ١٠ ٪ من المتفوقين بمعهد تدريب يدرسون فيه لمدة شهر ، وهناك يدربون على تحليل الشفرة "SYKO" وهو نظام الشفرة من الجو الى الارض الذى توسع الحلفاء في استخدامه .

- ويبدو أن الحلفاء استعملوا الشفرة "SYKO" لأنها خفيفة وسريعة وبسيطة ولكن ضعف سريتها كان معناه أنه فى الايام التى تشتد فيها حركة الارسال كانت فرق المحور المشتغلة بتحليل هذه الشفرة ، تقرأ رسائل الحلفاء الجوية فى الساعة ١٠ أو ١١ صباحا .

ولعل هذه الشفرة هيأت لادارة الاستطلاع أكبر نصر،عندما التقطت رسالة عن أن تشكيله كبيرة من القاذفات ذوات الاربعة محركات يعتقد انها من طراز « ليبراتور » ، قد أقلعت منذ الصباح الباكر من بنى غازى فلما حلقت هذه الطائرات على علو مقارب لقمم الدوافع فى حقل النفط الرومانى بآبار ومعامل تكريره ودباباته ، قوبلت بنيران شديدة فلم يعد سوى ٥٣ طائرة من القوة المغيرة وعددها ١٧٨ طائرة .

- عاد « برايم » من رحلته وهو يقسم بألا يعود مرة ثانية الى التجسس وربما خسر كثير من المال .. !

ولكنه سيكسب اكثر أيضا فى راحة البال والضمير ..

وأشرقت الشمس فى واحدة من المرات شديدة الندرة على مدينة « لندن » ، ووقف « برايم وزوجته » فى شرفة منزلهما ، يتمتعان بأشعة

الشمس التى لاتدوم طويلا فى سماء العاصمة البريطانية وهما يدخنان فى متعة وراحة .

-٧-

الخطة الوهمية

-٧-

الخطة الوهمية

– المعركة منذ الأزل قائمة بين الجريمة ورجال الأمن ، المجرمون يتخذون كافة الاحتياطات لمنع رجال الأمن من ضبطهم لاسيما معتادو الاجرام . وكلما تفنن المجرمون في وسائلهم لأخفاء شخصياتهم تمكن رجال الأمن بوسائل العلم أن يتعقبهم ، والجريمة التى تحير رجال الأمن والتى تسمى الجريمة الكاملة هى فى الغالب جريمة بسيطة ليس فيها تعقيدات ، وكلما كانت الجريمة بسيطة وقف رجل الأمن حائرا لايدرى من أين يبدأ .. ؟ .

– وجاءت الساعة الثالثة صباحا فى احدى الأيام الممطرة على مدينة « لندن » ، كان السكون والظلام يخيمان على ذلك الحى الهادىء ، فى تلك الليلة عندما فتح « برايم » باب منزله ، ووجد أمامه « زوجته » ، فأرتفع حاجباه فى دهشة ، وهو يقول :

– ماذا ألم بك ؟

– قالت الزوجة :

- انتظرتك طويلا ، ولكن أين قضيت هذه الليلة ؟

- أمتلأت كل ملامح « برايم » بالتوتر والحيرة ، وهو يجيب فى قلق متزايد والتقط نفسا عميقا . واستدار يزمع الأنصراف ، فاستوقفته زوجته قائلة في توتر :

- ماذا هناك يا « برأيم » .

- أتسعت ابتسامة « برايم » ، وهو يجيب فى هدوء .

- لاشىء يازوجتى ...

- التقت عينا « برايم » وزوجته الطيبة ، ولقد اعتبرها « برايم » زوجة فيلسوفه ، فهى تتحدث دائما عن الحياة والعمل الشريف .

- قالت الزوجة وهى جالسة فوق مقعد كبير ، أبتلع جسدها الرقيق وهى تنظر اليه :

- هل تشعر باليأس من الحياة ؟

- نظر اليها وأومأ برأسه ، بينما زفر فى ضيق ، ولكنها لم تتركه لأحزانه فقالت :

– اليأس من الحياة يازوجى العزيز ، شعور ينتاب المرء عندما تحل به المحن ، وتواجهه المصاعب وهو مرض اذا أصابنا وتمكن منا ، قتل نفوسنا وقتل فينا الرغبة فى الحياة ، ومع ذلك فنحن وحدنا الذين نستطيع أن نشفى قلوبنا من هذا المرض رغم حدته ، ولعله المرض الوحيد الذى لانحتاج فيه الى طبيب يخلصنا منه ، ففى أيدينا وحدنا وفى مكامن نفوسنا الخلاص من الألم الذى يحتوينا ، كما تعرضنا لمصائب الحياة ومشاكلها .

– شعر « برايم » بالتعب يتسلل الى جسده، وبالنعاس يداعب جفنيه ، فرفع عينيه المحمرتين اليها ، وقال وهو يمط شفتيه :

– حسنا يازوجتى .

– أختلس « برايم » النظر الى ساعته ، فقد كانت تقترب من الرابعة صباحا .

– عقدة حاجبيها ، وهى تقول :

– أن كل مشكلة تصادفنا فى حياتنا ، تحمل بين طياتها بذور الحل الذى نبحث عنه ، ولكن قد يحدث أن تكون هذه البذور أحيانا صغيرة

لاتكاد ترى بالعين المجردة ، أو قد تكون قليلة متناثرة هنا وهناك، ونحن فى الحالتين اذن لابد لنا من أن نضع على أعيننا منظارا مكبرا يساعدنا على رؤيتها ، وان يكون لدينا الصبر الذى سوف نحتاج اليه .

- تنهد « برايم » وهو ينظر اليها ، وارتسمت على وجهه علامات السرور وهو يرى زوجته ربة البيت فيلسوفة كبيرة ولزم الصمت تماما ..

واحترمت الزوجة صمته ومشاعره ، الا أنها لم تحتمل هذا السكوت فالتفتت اليه تسأله فى اشفاق :

- هل تشعر بالضيق ...

- أجابها بالنفى ولكنها أختارت كلماتها كأنها النهاية ...

وهى تقول :

« أبق حيًا كل حياتك » ، أن كل انسان يستطيع أن يتغير وأن يبدأ حياته من جديد ، مهما كانت قسوة الحياة عليه ، بشرط أن تكون لديه الرغبة فى هذا التغيير ، وبشرط أن يبذل كل مافى وسعه ليضع قدمه على بداية طريق الحياة الجديد ، فليس هناك شىء يقتل النفس ويشل حركتها سوى الاستسلام للقدر ، واليأس من الحياة ذاتها .

– جاء الصباح التالى مشرقا بالأمل ، فى عين وقلب « برايم » ، بعد أن أيقن من أنه يسير فى الطريق الصحيح فلقد أعطته زوجته دفعة قوية ، رفعت من معنوياته كثيرا ، ولقد بدا هذا واضحا جليا ، وهو يسير فى شوارع لندن ، متهلل الأسارير وأخيرا قادته قدماه الى بائع الجرائد ، فأخذ نسخة من جريدته وعاد الى المنزل وهو لايصدق أنه فى يوم سيكون سعيدا.

– تصفح « برايم » صفحاتها وتوقف عند عنوان كبير وبالخط العريض عن الحرب الخاطفة ...

– يصف كاتبها بأنها كالبرق تأتى من السماء غير متوقعة الاتجاه أو الهدف تهاجم قوات الدفاع عند الفجر واذا ماجاء الغروب كان وراء المدافعين جيش قوى يعمل فى مؤخرتهم ، وحتى تنجح الغربة الخاطفة لابد من المفاجأة وخفة الحركة ثم السرعة الكبيرة وقت النيران والحشد ، وهى أن تستعمل مقدرة الحركة العسكرية السريعة كسلاح نفسى ، لاتتحرك لكى تقتل ، ولكن تحرك لكى تتقدم ، لاتتقدم لاحتلال مواقع ولكن تقدم لكى تثير الخوف والرعب لكى تصيب عدوك بالذهول .

- لاتأسره فى البداية ولكن أتركه أسير للحيرة والتوتر والشك لكى تصبح خطوطه الخلفية فوضى شاملة تمزقها الاشاعات وتفترسها التهويلات .

- أن الذعر سوف يتحول الى وحش تجرى أمامه رعبا فلول عدوك وتنهار قيادته وتصاب بالشلل حكومته ، وقبل أن يتبين أحد ماذا جرى تكون قد أنتصرت ؟!

- ويرجع نجاح غزو الحلفاء لأوربا - جزئيا ، الى المفاجأة الجغرافية التى اتسم بها ، وترجع هذه المفاجأة الى خديعة الحلفاء المحكمة التى لعب فيها اللاسلكى دورا كبيرا ، فصرف أنتباه الألمان عن منطقة الانزال الحقيقى فى « نورماندى ». وضع مقر قيادة « ايزنهاور » خطة وهمية كاملة أطلق عليها اسما رمزيا هو (FORTITUDE) أو (قوة الاحتمال) ولم تكن برقيات مونتجمورى اللاسلكية ترسل من موقعه الحقيقى فى جنوب انجلترا ، وانما ترسل بخط برى الى مقر قيادة وهمى قرب « دوفر » وترسل من هناك وتم حشد سفن هيكلية فى « سانك بورت » للمساعدة علي هذا الأيهام . وكان الهدف من هذا كله أقناع الألمان بما كان الحلفاء يريدون منهم أن يؤمنوا به ، وهو أن الغزاة سيتدفقون عبر المانش فى

أضيق نقطة ، من « دوفر » الى « كاليه » وكانت الحشود في «اسكتلندا » توحي بهجوم مخادع مبدئي على جنوب « النرويج » .

– أسند « برايم » ذقنه الى يده ، كان التساؤل والترقب واضحا على وجهه ...

بينما التفتت اليه زوجته بدهشة ، وساد الصمت التام بينما أرتفع رنين الهاتف .

-٨-

سقوط الخائن

-٨-

سقوط الخائن

وحتى هذه اللحظة لم تكتشف المخابرات البريطانية (SIS)« جيفرى برايم » بالرغم من أن جهاز هذه المخابرات تعتبر من أقدم أجهزة المخابرات فى العالم حيث تم أنشاؤها فى عهد الملكة اليزابيث الأولى « ١٥٣٢ - ١٦٠٣ » .

وتكمن قوة المخابرات فى مصادرها عبر العالم كله والتى نمت وتطورت منذ عهد الامبراطورية البريطانية ، ثم من خلال رابطة الشعوب البريطانية «الكومنولث » ، ويتبع المخابرات البريطانية جهاز خدمة المخابرات السرية بأسم " M,- 6 " . وجهاز المخابرات الجنائية " M,- 5" بالاضافة الى جهاز المخابرات العسكرية ويقوم بالتنسيق بين هذه الأجهزة لجنة المخابرات المشتركة.

واذا كانت هذه هى المخابرات البريطانية فأن المخابرات السوفيتية تتميز بضخامة الحجم حيث تتبعها ٢٥ الف ادارة للمخابرات الخارجية و ٣٧٥ الف ادارة للمخابرات الداخلية ، وكان الأساس فى إنشائها ماعرف باسم

قوة « الشيط » أو شرطة « لينين » السرية ومن مهامها المتعددة داخليا وخارجيا- ففى الداخل تعمل أساسا على حماية النظام القائم فى روسيا وفى الخارج تعمل على جمع المعلومات عن دول العالم الغربى وبخاصة الدول الصناعية ومحاولة معرفة كل الاسرار الصناعية المتعلقة بتكنولوجيا الأسلحة والفضاء والصناعات الاستراتيجية .

وعن طريق « برايم » وبعض العملاء استطاع جهاز المخابرات السوفيتى الحصول على معلومات هامة مكنتهم من القفز خطوات واسعة فى عمليات التسليح فقد حصلوا على الأسرار الخاصة بنظام التوجيه الذى يخدم الأشعة فوق الحمراء المستخدمة فى صواريخ « ريبر » أى « وتنتجرد»

وأثبتت هذه العملية أيضا أن السوفيت قد أستطاعوا أن ينقلوا تكنولوجيا قاذفة القنابل « ب ل ب » الى القاذفةالسوفيتيةوبلاك جاك » كما أن طائرة النقل التى صنعوها « انيتنوف ٧٢ » تشبه كثيرا « البوينج ١٤ » ، وهناك أسباب تدفع الى الاعتقاد بأنالطوربيدمارك ٤٨ التابع للبحرية الامريكية قد تم اعادة انتاجه فى الاتحاد السوفيتى .

كما أن السوفيت استطاعوا أيضا أن يحصلوا على تكنولوجيا الرادار المحمول جوا والمعروف باسم « هاوتر » واستطاعوا أن ينتجوا مماثلا له ،

كذلك مكنت موسكو من معرفة مواقع الرؤوس النووية لبريطانيا والولايات المتحدة من معرفة درجة الاستعداد اليومى لكل وحدة عسكرية تابعة لحلف الاطلنطى وأدت الى الكشف عن رجال المخابرات الغربية والى الكشف عن الشفرة السوفيتية التى تمكن الغرب من معرفتها وبالتالى الى قيام السوفيت بحملة لاعطاء معلومات زائفة للغرب .

– وكان من الممكن أن يستمر « برايم » فى التجسس سنوات آخرى طويلة دون أن يفطن اليه أحد أو يشك أحد من رجال الأمن فى تصرفاته ، ولكن بدأت تظهر علامات القلق والخوف واعترف لزوجته بأنه يتجسس لحساب السوفيت .

وصعقت الزوجة ولم تصدق أن هذا الانسان الذى أحبها بهذا القدر والذى أضفى عليها وعلى أولادها الثلاثة أهتمامه وحنانا غير طبيعى يمكن أن يكون جاسوسا ...

– لم تكد تمضى ساعة واحدة ، بعد بلاغ الزوجة حتى أزدحم المكان برجال الشرطة السريين ، وفريق من المخابرات البريطانية وتم تفتيش الشقة تفتيشا دقيقا .

- تقافزت شياطين الغضب فى وجه رئيس شبكة مكافحة التجسس وهو يردد عبارات شديدة اللهجة ، ثم نظر الى « برايم » نظرة فاحصة وهو يقول له :

- لقد خدعتنا !.

- لزم « برايم » الصمت تماما . .. حينما هاجمه رئيس شبكة التجسس بكلمات أفقدت عقله ...

- أهتزت بريطانيا كلها للجريمة ، واهتزت معها امريكا، أن وصول هذه المعلومات الى السوفيت كفيل بهدم النظام القائم للمعلومات الحال وأقامة نظام جديد يتكلف مئات الملايين من الجنيهات ويستغرق وقتا طويلا من عمر الزمن .

- وجاءت الاسئلة تلو الاسئلة ، وحضر المحقق الذى وقف فى وسط قاعة التحقيق وهو يقول :

- كيف يمكن أن ترتكب مثل هذه الجريمة والخيانة ، دون أن تترك خلفها دليلا واحدا ؟.

- كيف ؟! .

– اقتربت الزوجة من زوجها وهى تقول له :

– أنت محتاج الى دليل واحد ينقذك من حبل المشنقة

– دليل واحد .

– ولكن أين هو هذا الدليل ؟

– أين ؟ .

– ضربت زوجة « برايم » مقعدها بقبضتها الصغيرة فى مرارة ، وهى تقول فى يأس :

– لابد من وجود دليل ...

– وقف محامى « برايم » وهو يدافع عنه بكل قوة ، وقال :

حضرات القضاة ... ما رأيكم لو أننا استرجعنا كل الأحداث خطوة خطوة ... قد يقودنا هذا الى الدليل الذى أبحث عنه.

– لوح « القاضى » بكفه وهو يقول :

– لابأس ... دعنا نسترجع كل شىء .

ومرت ساعات وأيام ، والاحداث تتلاحق ، والغموض أصبح مرئيا

وجاءت النتيجة هذه المرة سلبية ...

وأجمع القضاة على أن « جيفرى برايم » مذنب ...

– ساد الصمت فى القاعة لحظة ، والتقت عينا « برايم » بزوجته الطيبة ، وكل منهم يسترجع التفاصيل فى ذهنه وهتفت الزوجة فى انفعال :

لقد لقيت الدليل ...

– هل اعتراف « برايم » لى ... لايعتبر دليل ؟ ...

– نعم ...

– نعم يعتبر من أكبر الادلة على حسن النوايا نحو بلده ...

– هب محامى « برايم » من مقعده ، مستطردا فى حماس :

– الأن أيقنت أن « برايم » مع كونه مذنبا فى حق وطنه الا أنه أحس بخطئه وعاد من جديد ...

وأننى ألتمس من المحكمة أن تخفف الحكم ...

– وجاءت لحظات اعلان الحكم النهائى على « برايم » .

قال القاضى :

- تطبيقا لحكم القانون أعلن أن « جيفرى برايم » مذنب بأجماع الاراء وقد صدر عليه الحكم بالاعدام شنقا .

- وقف الجميع وأنصرف القضاة ، ومن ثم أعيد « برايم » الى السجن ...

كان هادئا، ولكن كان لابد أن يسند وهو يسير بين الحراس ينقل قدميه مترنحا كطفل حديث العهد بالمشى ...

- ودخل « جيفرى » السجن وقد أسودت الدنيا فى وجهه وأحس بوقوف كل شعرة فى جسده ....

- وفى صوت قوى دقت ساعة السجن ....

- كان الوقت يمضى على نمط حسابى مجرد ، وهاهوالليل يأتى بظلمته ...

ترى كم من الليل سيأتى عليه ؟

– لم يشعر « برايم » بأى شىء سوى أنه فقد الوعى وسقط وسط الزنزانة مرتطما بالارض وقد أندفع الدماء من فمه بغزارة .

-٩-

النهاية المؤلمة

-٨-

النهاية المؤلمة

حفلت جرائد الصباح بأخبار أكبر عملية تجسس فى تاريخ بريطانيا ، وأسودت حروفه كأنها تنعى أحد أبناءها .

وأعادت الذاكرة « لبرايم » فذكرته بأن هذا الطريق ماهو الا طريق مسدود ولقد أكتشف ثقبا فى جدار الحياة ، الذى مالبث أن أتسع فغمرة بالظلام بعد أن جاء منه النور.

– وقف « برايم » وسط الزنزانة وهو يقول :

– لقد خنت بلدى ! ...

كانت لى أحلامى ، وكنت أرى الدنيا جميلة حية مشرقة بالحرية والنور .

– لقد جئت الى هنا نتيجة خطأ قاتل ...

– ولكن ماهنا الذى أخافه ؟

لن يكون بالنسبة لى الا حبل يلتف حول عنقى ثم تصعد روحى الى

بارئها ...

- سوف أصرخ عاليا ... نعم

- سوف أتألم للحظات ... نعم .

ولكنى أخاف شيئا آخر ..!

- أننى أخاف من ذلك السجن .

- هذا السجن المظلم الذى يحتجزنى ويطبق قضبانه على قلبى الذى لايكف عن العويل ..

- عندما كنت طفلا أعيش فى حرية وآكل كما أريد .كانت حياتى حلوة جميلة ....

- والآن لقد اصبح الأمر مضحكا ، أليس كذلك ؟

نعم .. لقد أوقعت نفسى فى مأزق لن أستطيع الفكاك منه ...

- ولكن أين من تعاونت معهم ؟

- أين أصدقائى السوفيت ؟

- هل سقطوا ... كما سقطت ...

– لقد سكت كثيرا ... فلماذا هم ساكتون ؟

– لقد علمت منهم أنهم الآن يطلبون الإفراج عنى ...

– فهل هذا حقا ؟

– لقد طال إنتظارى ...

– لماذا لم يحضروا ...

وفتح باب الزنزانة ...

ودخل أحدهم وهو يقول :

– اسكت أيها الخائن ...

أريد تفسيرا منك كيف استطعت أن تخدع أمة بأسرها ... كيف جرؤت ... وأنت رب الأسرة السعيدة ، أطفال سعداء ، وزوجة محبة ، ووطن تعيش فيه بحرية ...

وتساقط المطر على مدينة « لندن » كأنه لم يتساقط من قبل وهبت الرياح وجاء ميعاد « جيفرى » وخرج من الزنزانة وهو يتكأ على أحد الحراس بينما سحباه إثنان آخران وهو يقول والدموع تتساقط من عينيه :

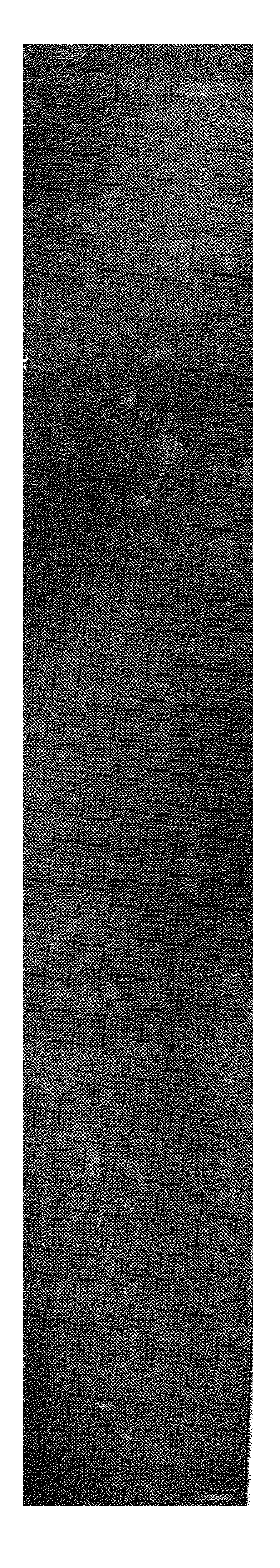
« وداعا وطنى » ...

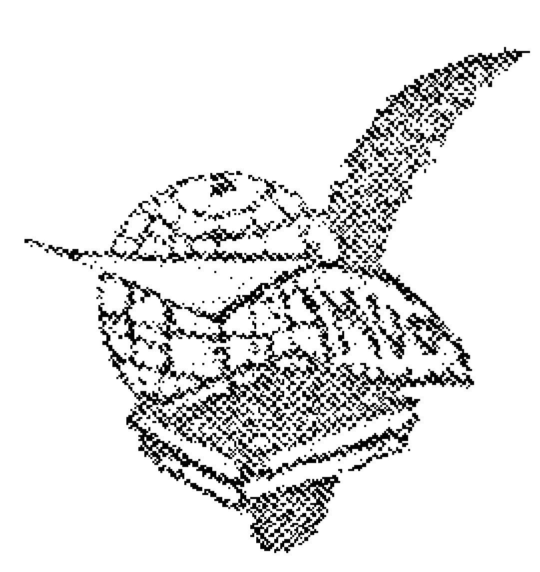
- وساد صمت حزين ، بينما تلاحقت الأبناء ...

- ثم جاء صوت أحد الضباط وهو يقول :

- تراجعوا للوراء أيها السادة .

« تمت بحمد الله »





المكتب الجامعي الحديث

الأزاريطة ـ الاسكندرية ـ تليفاكس ٤٨٤٣٨٧٩